الفصل الثامن
الصومال

كان عرب الجزيرة العربية بوجه عام وعرب اليمن وحضر موت وعمان بوجه خاص هم أول من عرف منطقة شرق إفريقية قبل غيرهم من الأمم الأخرى كالإغريق والرومان. ويذكر المؤرخون أن العرب استطاعوا منذ أقدم العصور أن يعبروا مضيق باب المندب، وأن يكتشفوا البلاد الواقعة إلى الجنوب من هذا المضيق من بلاد الدناقل شمالا إلى موزمبيق وجزيرة مدغشقر جنوبا.

ومن الملاحظ أن مضمون الاتصال بين عرب شبه الجزيرة العربية وبين شرقي إفريقية، كان التبادل التجارى وتصريف منتجات المنطقة في شتى الأسواق العالمية. وساعد العرب على القيام بهذه المهمة عدة عوامل، أهمها مايلي:

أولاً ـ الرياح الموسمية الشمالية الشرقية التي تدفع المراكب العربية من شواطىء شبه الجزيرة العربية والخليج العربى إلى ساحل إفريقية الشرقى، وذلك في الفترة من شهر كانون أول حتى أواخر شهر آذار، ثم الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تدفع تلك المراكب من ساحل إفريقية الشرقى لتعود إلى قواعدها عبر ألفي ميل من مياه المحيط الهندى، وذلك في الفترة من شهر نيسان حتى أواخر شهر أيلول.

ثانياً ـ موقع بلاد العرب الجغرافى الهام على الشريان التجارى العظيم بين الشرق الأقصى ومنطقة الشرق الأدنى. وكان هذا الشريان التجارى يبدأ من الصين والهند وجزر الهند الشرقية، ثم يسير بحرا بمحاذاة جنوبي بلاد العرب حتى مدخل البحر الأحمر، ثم يعبره إلى السويس أو العقبة، ومن العقبة يتجه شمالا إلى بلاد الشام ثم الى البحر المتوسط، ومن السويس يتجه إلى الإسكندرية، ومنها

obeikandl.com

إلى موانىء أوروبا.

ثالثاً ـ خبرة العرب الكبيرة في ركوب البحار واحاطتهم بأسرار الملاحة في تلك الرقعة المائية الشاسعة بين سواحل الهند، بالإضافة إلى معرفتهم بعلم الفلك وتحديد الاتجاهات بالشمس والكواكب.

على أن العرب لم يقتصروا على القيام بالوساطة في نقل المتاجر من سواحل شرقي إفريقية وإليها فحسب، بل دأبوا على اختيار قواعد على تلك السواحل تصلح كمحطات لتموين مراكبهم ولتخزين سلعهم التي كانت تأتى من داخل القارة، وتساعد على جعل مراكز للعمران يتجمع حولها السكان المحليون، وهى مراكز لم يحفظ التاريخ شيئا من أخبارها في عصر ما قبل الإسلام.

ثم جاء الإسلام وساعد على خروج العرب من جزيرتهم مندفعين بحماسة عموة وكان من نتيجة الاضطرابات السياسية التي شهدتها الدولة الأموية من حدثت هجرات قبيلية من شبه جزيرة العرب إلى الساحل الإفريقي، ومنه تسللت إلى داخل القارة، حيث اختلطت بالسكان الأصليين من الإفريقيين. ثم وفدت خلال القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) هجرات عربية أخرى إلى ساحل إفريقية الشرقى، وأسس العرب المهاجرون هناك أول مدن أو مراكز تجارية معروفة في التاريخ. وكانت مقديشيو أول مدينة أسست وقتئذ على ساحل الصومال أو البنادر، ثم تلتها براوه. وفي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين (السادس والسابع الهجريين) أسست مدن عربية أخرى في الساحل، أهمها (ملندى) و (ممبسة) و (لامو). وكانت كل مدينة من هذه المدن مستقلة بشؤونها الداخية. مما حدا بالمؤرخين إلى تشبيهها «ببدول المدن» المعروفة في تاريخ الإغريق.

ومن الممكن القول بأن مجىء العرب إلى ساحل إفريقية الشرقى وإقامتهم به إقامة دائمة، كان بمثابة بدء لعهد جديد في تاريخ شرقي إفريقية، وهو عهد اتسم بظهور تغيرات واسعة في علاقات الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

فمن الناحية السياسية حملت الهجرات العربية معها الإسلام كدين ونظام. كما

حملت معها أيضا بذور الاختلافات المذهبية والدينية التي شهدها العالم الإسلامى بين السنـة والشيعة والخوارج. واستطاعت هذه الهجرات أن تؤسس مدنا وإمارات وسلطنات.

ومن الناحية الاقتصادية يلاحظ أنه قبل مجيء الهجرات العربية ثم الفارسية لم تكن الجماعات البشرية المستقرة بساحل إفريقية الشرقي تعرف إلا رعى الأغنام والأبقار وصيد بعض الحيوانات كالفيلة وزراعة أنواع بسيطة من الغلات مثل اللوبيا والزنجبيل. ولكن بعد تأسيس المدن والإمارات والسلطنات الإسلامية، اشتغـل العرب الوافدون بالزراعة، وعملوا حرفة الزراعة لجيرانهم الإفريقيين، وأدخلوا زراعة قصب السكر والسمسم الهندى والتوابل وغيرها من الزراعات التي لم يعرفها ساحل إفريقية الشرق من قبل. وعلاوة على ذلك، غدت المدن العربية بمثابة محطات تفد إليها منتجات الجهات الداخلية من القارة، مثل الرقيق والعاج (أو سن الفيل) والذهب والعنبر والصمغ واللبان والبخور، وراح العرب يصدرون هذا السلع إلى الأسواق الخارجية ويستوردون في مقابلها المتاجر الشرقية. وعلى هذا النحو، نجح العرب في إخراج شرقي إفريقية عزلتها، وربطوها بأهم مصادر الإنتاج العالمى في الشرق الأقصى وفي بلاد البحر المتوسط.

ومن النـاحية الاجتماعية يلاحظ أن الإسلام لم يعرف الحاجز اللونى الذي لايسمح للرجل الأبيض بأن يندمج ويختلط مع قرينه صاحب البشرة السوداء. وكان لسمو الحضارة الإسلامية في هذا الشأن أثره في انتشار الإسلام في شرقي إفـريقية وتهيئـة الـظروف الموضوعية لتغيير علاقات الزواج في مجتمعات شرقي إفريقية، وبالتالي تكوين الشعب السواحلي.

ولقد نشأ الشعب السواحلى نتيجة للزيجات التي تمت على مدى طويل بين الجاليات العربية والفارسية وبين قبائل البانتو الإفريقية. وكان من الطبيعى أن يعتنق السـواحلية الإسـلام، بل إنهم صاروا يقلدون العـرب في كل مايتصل بحياتهم الاجتماعية. ومع أن السواحلية ينحدرون أصلا من قبائل البانتو، إلا أن ملامحهم وصفاتهم الجسمانية قد تعدلت إلى حد كبير نتيجة لامتزاجهم بالدماء الآسيوية. ومع تكوين الشعب السواحلى، نشأت اللغة السواحلية، وهي خليط من اللغة العربية ولغة البانتو.

ورغم ازدهـار المدن والإمارات العربية في ساحل إفريقية الشرقى، إلا أنها كانت تفتقر إلى قوة حربية منظمة. ولم تكن الأسلحة التي يتقلدها أهل هذه المدن والإمارات تتعدى السيوف والخناجر. ويمكن تعليل افتقار تلك المدن والإمارات لقوة حربية منظمة، إلى أنها لم تقم أصلا على الفتح بل على التجارة، إذ أن التحـار والمهـاجرين العرب هم الذين أسسوها، وهم الذين امتلكوا الأراضى الزراعية فيها وتولوا تصريف السلع التي تأتى من داخل القارة في الأسواق العالمية.

وكان بعد اكتشاف طريق رأس الرجال الصالح عام ٩٠٤هـ (١٤٩٨م) على يد فاسكو دى غاما، أن وصل النفوذ البرتغالى إلى سواحل شرقي إفريقية. ومنذ أوائل القرن السادس عشر، أخذ البرتغاليون يرسلون الحملات البحرية إلى هذا الساحل، بغية الاستيلاء عليه وتوطيد نفوذهم به، فأرسلوا لهذا الغرض (كابرال) و (فاسكو دي غاما) و (داميدا) و (البوكيرك) على التوالي وكانت النتيجة أن أستولى البـرتغاليون على بعض المدن العربية بساحل إفريقية الشرقى، وأحالوا بعضها الآخر إلى توابع أو حلفاء لهم. والحقيقة أنه لم يأت عام (٩١٥هـ (١٥٠٩م) إلا وكـانت جميع المـدن والمـراكـز التجـارية بسـاحل إفريقية الشرقى قد خضعت للبرتغاليين: من (سفالة) جنوبا إلى (براوة) شمالا، بالإضافة إلى جزر (زنجبار) و (بمبه) و (مافيا)، وكذلك (موزامبيق).

وارتكز البرتغاليون في ساحل إفريقية الشرقى على الجزء الجنوبى منه. وأما الجـزء الشـمالي من الساحل، والذي يمتد من رأس (دلغادو) جنوبا إلى رأس (غردافوى) شمالا، فقد اكتفى البرتغاليون بالاعتماد على مخالفة شيوخ (ملندى).

ومـما يجب ذكـره أن سلطة الـبرتغـاليين لم تتوطد بسهولة في ساحل إفريقية الشرقى، فقـد أخـذ الغـرب يحرضون الأهالى على طرد البرتغاليين من المراكز التجارية التي كانوا هم أصحاب التصرف المطلق فيها. وكانت (ممبسة) هي التي بدأت حركـة المقـاومـة العـربية ضد الاستعـمار الـبرتغالى ففي عام ٩٣٤هـ (١٥٢٨م) حاول سلطان (ممبسـة) تحريض أهالى (زنجبار) و (بمبه) على طرد البرتغاليين، ولكن الأهالى خشوا العاقبة فوشوا به لدى السلطات البرتغالية التي أسرعت بضرب الحصار على (ممبسة)، وعرضت على سلطانها معاهدة اشترطت

مقابل فك الحصار أن يدفع فدية للبرتغال، وأن يتعهد بعدم الاتصال بالاتراك العثمانيين.

وفي هذا الوقت كان الأتراك العثمانيون قد استولوا على بلاد المشرق العربى، فابتدأوا بالشام ثم مصر فالحجاز فاليمن، واتخذوا من عدن قاعدة لمهاجمة المحطات والمراكز التجارية البرتغالية في المحيط الهندى والخليج العربى. ومع أن العثمانيين نجحوا بعض الشيء في تخفيف الضغط البرتغالى على التجار العرب والإمارات العربية الساحلية وحطموا كل المحاولات الرامية إلى تكوين جبهة نصرانية من البرتغاليين والأحباش ضد القوى العربية الإسلامية على البحر الأحمر وشرق إفريقية، إلا أن جهود الأتراك في البحار الشرقية لم تؤد إلى نتائج حاسمة. إذ أن الأتراك لم يحاولوا أن يكتلوا القوى الإسلامية المبعثرة على شواطىء المحيط الهندى أو يكونوا منها جبهة تعمل في تناسق ضد البرتغاليين. ومن هنا لم يقدم العثمانيون يد المساعدة لسكان والإمارات العربية بشرق إفريقية إلا في أواخر القرن السادس عشر الميلادي، وجاءت مساعدتهم لهم بطريقة غير مباشرة على يد أحد أمراء البحر العثمانيين ويدعى على (ميرال).

ففي عام (١٥٨٦م) جاء (علي ميرال) إلى مقديشيو، وأبلغ أهلها أنه موفد من قبل السلطان العثماني ليوطد نفوذه وحكمه على الساحل الإفريقي. وحتى يشجع سكان الساحل على الجهاد ضد البرتغاليين، أوهمهم بأن أسطولا عثمانياً ضخما في طريقه إلى مياه شرقى إفريقية، مما كان له أثره في إسراع أهل مقديشيو بالاعتراف بسيادة السلطان العثماني. واستطاع (علي ميرال) بمساعدة الأهالى أن يأسر بعض السفن البرتغالية وأن يرسل بحارتها إلى الأستانة، ولكنه لم يلبث وقع أسيرا في أيدى البرتغاليين، فأرسل إلى لشبونة، حيث توفي هناك. واستعاد البرتغاليون نفوذهم على المدن والإمارات العربية بساحل إفريقية الشرقى باستثناء مقديشيو.

واستطاع البرتغاليون أن يسيطروا على زمام الموقف في ساحل إفريقية الشرقى حتى حوالى منتصف القرن السابع عشر الميلادى، إلا أنهم تعرضوا في النصف الثاني من هذا القرن لمقاومة شديدة من جانب سكانه المسلمين بمساعدة دولة اليعاربة (١٢٦٤-١٧٤١م) في عمان. فقد أرسل الإمام سيف بن سلطان عام

١٦٩٨م أسطولاً بحريا إلى ساحل إفريقية الشرقى، استطاع أن يطرد البرتغاليين من ممبسة، ثم أخذت عمان تعمل لنشر نفوذها على الساحل. وعلى أوائل الثلاثينات من القرن الثامن عشر الميلادي، كانت عمان قد نشرت نفوذها على الساحل من مقديشيو شمالا إلى نهر روفوما جنوبا، ولم يتبق للبرتغاليين من ممتلكاتهم في هذا الساحل سوى مستعمرة موزمبيق.

ولكن عرب شرقي إفريقية لم يرحبوا بعرب عمان إلا كمخلصين لهم من قسوة الاحتلال البرتغالي وظلمه، وليس كأسياد جدد يحلون محل البرتغاليين ويفرضون سيادتهم عليهم. ولذلك أخذت الروح الاستقلالية تنمو بين سكان موانى ساحل إفريقية الشرقى وجزره. ولاسيما بعد سقوط دولة اليعاربة في عمان وحلول دولة آل بوسعيد محلها عام ١١٥٤هـ (١٧٤١م)، حيث استأثر المزروعيون بحكم ممبسة وتوابعها.

وبعد صراع طويل بين ممبسة وبين عمان، أو بالأحرى بين المزروعيين وبين آل بوسعيد، استطاع السيد سعيد بن سلطان عام ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م) إنزال قواته في ممبسة والاستيلاء عليها. وأدى خضوع ممبسة لعمان إلى انتشار النفوذ العمانى في كل ساحل إفريقية الشرقى من (وارشيخ) شمالا إلى رأس (دلغادو) جنوبا، بالإضافة إلى جميع الجزر المجاورة لهذا الساحل.

وكان السيد سعيد بن سلطان قبل أن يخضع ممبسة عام ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م) قد نقل عاصمته من مسقط في عمان إلى زنجبار بساحل إفريقية الشرقي منذ عام ١٢٨٤هـ (١٨٣٢م)، إلا أنه لم يستقر نهائيا في عاصمته الجديدة إلا في عام ١٢٥٦هـ (١٨٤٠م)، لانشغاله في محاربة ممبسة من جهة، واضطراره من جهة أخرى للعودة إلى عمان بين الحين والآخر لإخماد القلاقل والاضطرابات الداخلية فيها.

ومما تجدر ملاحظته أن السلطنة العمانية بقسميها الآسيوى والإفريقى كانت تكون دولة واحدة في عهد السيد سعيد بن سلطان، وظلت كذلك حتى وفاته عام ١٢٧٣هـ (١٨٥٦م). وكان السيد سعيد قبل وفاته قد عين ابنه ماجد حاكما على القسم الإفريقي من السلطنة. وعين ابنه (ثوينى) حاكماً على القسم الآسيوى منها. فلما توفي السيد سعيد عام (١٢٧٣هـ (١٨٥٦م)، حدث نزاع

بين الشقيقين على الحكم، ولكن بريطانيا لم تلبث أن تدخلت في هذا النزاع، فأصـــدر اللورد كاننـــج حاكم الهنـــد العـام حكمـه المشهـور عام (١٢٧٨هـ (١٨٦١م)، والـذي ينص على أن يعـين ماجـد سلطانـا على زنجبار وتوابعها الإفريقية، وأن يعين ثوينى سلطانا على عمان وملحقاتها على الخليج العربى، بشرط أن يدفع ماجد لثوينى اعانة سنوية مقدارها ٤٠,٠٠٠ ريال. ونجحت بذلك بريطانيا في تقسيم السلطنة العمانية.

ولقد ظل ماجد يحكم سلطنة زنجبار حتى توفي عام ١٢٨٨هـ (١٨٧٠م)، فخلفـه أخوه برغش بن سعيد ١٢٨٨-١٣٠٦هـ (١٨٧٠-١٨٨٨م). وفي عهد برغش جاءت حملة مصرية إلى ساحل الصومال الجنوبي عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٥م) بهدف فتح طريق للمواصلات بين خليج ممبسة أو مصب نهر الجب (جوبا) وبين مديرية خط الاستواء المصرية (السودان الجنوبي). ولكن الحملة فشلت في تحقيق غرضها أمام معارضة جون كيرك قنصل بريطانيا في زنجبار. وكانت سياسة جون كيرك في سلطنة زنجبار تعتمد على عاملين رئيسيين:

١ ــ عامل التظاهر برعاية مصالح سلطان زنجبار والمحافظة على ممتلكاته، أو بعبارة أخرى التستر وراء السلطان لتشديد قبضة بريطانيا على شرق إفريقية وتنفيذ أغراضها ومخططاتها فيها بسهولة.

٢ ــ والعامل الآخر، هو إبعاد الدول الأخرى عن تلك المنطقة من القارة، والتي ازدادات أهميتهـا الدولية بعد افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية عام ١٢٨٧هـ (١٨٦٩م)، واتصال زنجبار بعدن والهند بخطوط ملاحية منتظمة.

ومن الملاحظ أنه قبل مجيء الحملة المصرية إلى ساحل الصومال الجنوبي، كانت الإدارة المصرية في عهد الخديوى اسماعيل قد امتدت على طول ساحل البحر الأحمر الغربى وبعض أجزاء من بلاد الصومال على النحو التالي:

١ ــ في عام ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م) حصلت مصر من الدولة العثمانية على حق إدارة ولايتى مصوع وسواكن.
٢ ــ في عام ١٢٨٨هـ (١٨٧٠م) أنشأت مصر محافظة سواحل البحر الأحمر وتمتد من السويس شمالا إلى راس غردافوى جنوباً.

٣ ـ في عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٥م) تنازل الباب العالى لمصر عن ميناء زيلع مقابل جزية سنوية مقدارها ١٥,٠٠٠ جنيه تركي.

والواقع ان الشاطىء الجنوبي لخليج عدن ظل تابعا لمصر حتى عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٤م)، حين أرغمت مصر على إخلاء السودان وجميع الموانىء المطلة على البحر الأحمر فيما عدا سواكن، وذلك بعد عامين من خضوع مصر للاحتلال البريطاني. وسرعان ما أطلت حركة التسابق الاستعمارى الأوروبى على منطقة شرقي إفريقية، وهي الحركة التي ترتب عليها تفتيت وحدة الصومال واقتسامه بين فرنسا وبريطانيا وإيطاليا، ثم حصول كل من أثيوبيا وكينيا على أراض منه.

وكانت فرنسا في الحقيقة أول دولة أوروبية تبدي أهتماماً كبيراً بالساحل الإفريقي المطل على خليج عدن، وذلك منذ الأربعينات من القرن التاسع عشر الميلادي، كنتيجة لاستيلاء بريطانيا عام (١٢٥٥هـ (١٨٣٩م) على عدن القريبة من مدخل البحر الأحمر. وفي عام ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م) عقدت فرنسا مع سلطان (رهيطة) ويدعى ديني أحمد أبو بكر معاهدة اتفق فيها على أن يتنازل شيوخ الدناكل للإمبراطور نابليون الثالث مقابل ١٠,٠٠٠ ريال عن ميناء (أوبوك) وخليجه، مع السهل الممتد من رأس (علي) جنوباً إلى رأس (دوميرا) شمالا.

ولقد أخذت فرنسا منذ هذا الوقت تعقد معاهدات مع الشيوخ المحليين أو السلاطين لتوسيع ممتلكاتها على الساحل الإفريقي المطل على خليج عدن. وحرصت فرنسا على أن تثبت في هذه المعاهدات أن هؤلاء السلاطين رؤساء مستقلون يتمتعون بسيادة تامة على بلادهم. كما صارت البوارج الفرنسية تظهر منذ هذا الحين بكثرة في مياه خليج عدن.

وفي عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م) أسس الفرنسيون محطة أفضل من (أوبوك) عند رأس جيبوتى، التي تسيطر على نهاية طريق القوافل من هرر والحبشة، وسرعان ما هجر التجار الفرنسيون (أوبوك)، واتجهوا بقوافلهم إلى (جيبوتى)، كما انتقلت السلطات الفرنسية نفسها من (أوبوك) إلى هذا الميناء الجديد، الذي تقرر اتخاذه عام ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) عاصمة لمستعمرة الصومال الفرنسي.

ومن الجدير بالذكر أن الروح الوطنية لم تظهر في الصومال الفرنسي بشكل

واضح إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وإن كانت قد قامت شواهد قبل ذلك تشير إلى قيام حركة مقاومة للاستعمار الفرنسي في صورة مطالبة ببعض الحقوق السياسية. والواقع ان الحياة السياسية في الصومال الفرنسي قد تطورت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية تطوراً تدريجياً، ولكنه ملحوظ. فظهرت عدة أحزاب أو تكتلات مثل: الاتحاد الجمهورى الصومالى، والاتحاد الديمقراطي للعفر، ورابطة العيسى الديمقراطية، واتحاد العيسى الديموقراطى.

استفتـــاء عـــام ١٩٥٨م

وفي عام ١٣٨٧هـ (١٩٥٨م)، جرى استفتاء على دستور الجمهورية الفرنسية الخامسة، وفي هذا الاستفتاء خير سكان الصومال الفرنسي بين استمرار تبيعتهم لفرنسا وبين الاستقلال. وقد أثار هذا الاستفتاء خلافاً كبيراً بين الصوماليين، وأسفر عن ٧٥٪ في صالح استمرار التبعية لفرنسا. وقد ذكر بعض المراقين والمحليين السياسيين أن نتيجة هذا الاستفتاء ترجع إلى خوف أهالي الصومال الفرنسي من أطماع أثيوبيا في بلادهم، تلك الأطماع التي أفصحت عنها تصريحات الامبراطور هيلاسلاسى، والتي أعلن فيها أن ساحل الصومال جزء لايتجزأ من الأراضى الأثيوبية لاعتبارات تاريخية وعنصرية واقتصادية. فالصومال الفرنسى ـ على حد تعبير الإمبراطور ـ كان تابعاً لأثيوبيا منذ القدم إلى أن ثم تقسيم شرقي إفريقية بين الدول الإستعمارية.

أما العناصر الوطنية في الصومال الفرنسي فقد اتهمت السلطات الفرنسية في جيبوتى بتزوير الاستفتاء، وليس فقط لاستمرار الاستعمار الفرنسى للمنطقة، ولكن أيضاً لإيهام الرأى العام الفرنسى والدولى بأن هناك انقساماً قبلياً خطيراً في الصومال الفرنسى بين الصوماليين والدناكل لايشجع على قيام حكومة واحدة متسقلة.

وإن لقلة السكان وفقر المنطقة وجهل الأهالي وانصرافهم وراء لقمة العيش لتلعب دوراً رئيسياً في تأخر روح المقاومة.

وإذا كان قد ترتب على استفتاء ١٣٧٨هـ (٢١٩٥٨م) استمرار تبعية جيبوتى لفرنسا، إلا أنه كان بداية لنشأة روح التذمر عند الشعب. وتظهر روح التذمر في تلك المظاهرات الصاخبة التي نادت باستقلال البلاد، والتي استقبلت الجنرال ديغول عند زيارته لمستعمرة جيبوتى عام ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م).

وكان الإنجليز يتتبعون بحذر شديد منذ الأربعينات من القرن التاسع عشر الميلادي نشاط الفرنسيين على ساحل الصومال المطل على خليج عدن، إذ رأوا أن مصالحهم في عدن تقتضى عدم وقوع ذلك الساحل تحت نفوذ فرنسا. فمن المعـروف أن مستعمرة عدن البريطانية كانت تعتمد في تموينها اعتماداً تاماً على مينائي (زيلع) و (بربرة) الواقعين على ساحل الصومال المطل على خليج عدن. ومن ناحية أخرى، فقد تبين للانجليز أن وقوع الشاطىء الجنوبي لخليج عدن في قبضة الفرنسيين، وما يتبع ذلك من قيام قوة حربية فرنسية معادية في مدخل البحر الأحمر وعلى طريق الهند، يهدد بريطانيا في كيانها الاستعمارى في الهند ذاتها، ويمنع الأساطيل البريطانية من السيادة البحرية على سواحل إفريقية الشرقية وسواحل بلاد العرب الجنوبية. يضاف إلى ذلك عامل آخر، هو مااكتسبه ساحل الصومال المطل على خليج عدن من أهمية بسبب افتتاح قناة السويس للملاحة العالمية عام ١٢٨٧هـ (١٩٦٩م).

ولهـذه الأسبـاب إذن، تذرعت بريطانيا التي احتلت مصر عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م) باندلاع الثورة المهدية في السودان وفشل مصر في إخمادها، فأرغمت الحكومة المصرية عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٤م) على إخلاء سواحل شرق إفريقية، من مضـيق باب المـنـدب إلى رأس حافـون. وقـامـت مصر فيما بين سنتى ١٣٠٢-١٣٠٦هـ ١٨٨٤ و ١٨٨٨م) بإخلاء المنطقة التي تضم موانىء (زيلع) و (بلحار) و (بربرة) على خليج عدن، ليستولى عليها الانجليز ويؤسسوا بها ما عرف باسم الصومال البريطاني.

استقلال الصومال البريطانى

وكـان لاقتسام الصومال وتفتيته إلى مناطق نفوذ بين الدول الاستعمارية وقع شديد الأثر في نفس الوطنيين، مما أدى ظهور حركة وطنية بقيادة محمد بن عبدالله حسن المعروف بالملا تستهدف طرد المستعمرين من بلاد الصومال. وقد بدأ الملا حركتـه السياسية عام ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) عنـدما أعلن أنه مهدى الصومال، ونـادى بالجهـاد المقـدس ضد الإنجليز، فالتف حوله كثيرون من الاتباع، الذين أطلق عليهم اسم الدراويش، واسمى الذين رفضوا الانضمام إلى حركته من الصوماليين بالكفرة.

واتخذ الملا من الركن الجنوبى الشرقى من محمية الصومال البريطاني مسرحاً

لنشاطه ضد الإنجليز. ونجح في السيطرة على داخل البلاد لمدة من الزمن بلغت حوالى العشرين عاماً، أقض خلالها مضاجع البريطانيين الذين اضطروا إلى إخلاء الأقاليم الداخلية من محمية الصومال البريطاني والمحافظة على الثغور الساحلية. وفيما بين سنتى ١٣١٨-١٣٢٢هـ (١٩٠٠ و ١٩٠٤م)، استطاع الملا الإفلات من أربع حملات بريطانية متعاقبة، نظمتها السلطات البريطانية للإيقاع به.

والواقع أن الملاظل شوكة في جنب البريطانيين حتى عام ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م) ففي هذا العام استطاعت القوات البريطانية أن تنزل الهزيمة بقوات الملا بعد سلسلة من المعارك، وقيل أن الملاقد جرح في احدى هذه المعارك الختامية، واضطر للهرب الى اقليم أوغادين ليعيد تنظيم صفوفه، ولكنه لم يلبث أن مات متأثراً بجراحه. ولا تزال سيرة الملا يتغنى بها الصوماليون. وعلى الرغم من وفاة الملا، فقد استمر كفاح الصوماليين ضد الاستعمار البريطاني لبضعة شهور أخرى، ومنذ هذا الوقت وحتى قيام الحرب العالمية الثانية سيطرت بريطانيا على الصومال البريطاني سيطرة تامة.

وأما فيما يتعلق بالصومال الإيطالي فمن المعروف ان الإيطاليين بعد استيلائهم على مصوع عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٥م) قد بدأوا يبسطون نفوذهم على الصومال، ولكن بخطوات وئيدة. وفي عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) عقد الإيطاليون معاهدتى حماية مع سلطانى (أوبيا) و (ميجورتين).

على أنه بالرغم من خضوع سلطنتى (أوبيا) و (ميجورتين)، أي ساحل الصومال الشمالي المطل على المحيط الهندى، للحماية الإيطالية منذ عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م)، فقد ظل هذا الساحل في الواقع بعيداً عن أيدى الإيطاليين حتى ١٣٤٣-١٣٤٥هـ (١٩٢٥-١٩٢٧م)، عندما أرسل هؤلاء حملة حربية أدخلته مباشرة تحت الحكم الإيطالي.

وكان بسبب الضائقة المالية التي تعانى منها إيطاليا، إلى جانب انشغالها بنشر نفوذها السياسي في الإمبراطورية الأثيوبية، أن أسند حكم مستعمرة ساحل (البنادر) إلى الشركات الإيطالية. وعلى العموم، فقد ظلت إيطاليا تحتل الصومال الإيطالي حتى الحرب العالمية الثانية.

وكانت العناصر الوطنية في الصومال الإيطالي قد أجمعت على ضرورة انتهاز فرصة هزيمة إيطاليا في الحرب العالمية الثانية وحاجة بريطانيا إلى تأييد الصومال وغيره من الدول، فتقدمت إلى الإدارة البريطانية ببرنامج سياسي تضمن تصفية الاستعمار من كل أجزاء الصومال وتوحيدها في ظل علم واحد ودولة واحدة وإلغاء التعصب القبلى وكل التقاليد المناهضة لمضمون الدولة، وأن يكون الصومال جمهورية ديموقراطية، ودينه الرسمى هو الإسلام.

وفي مطلع ربيع أول ١٣٧٠هـ كانون أول (١٩٥٠م) وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على وضع الصومال الإيطالي تحت الوصاية الدولية لمدة لاتتجاوز عشر سنوات، وأن تكون إيطاليا هي الدولة التي تتولّى تنفيذ الوصاية بإشراف مجلس استشارى للصومال يتبع هيئة الأمم المتحدة. وكان هذا المجلس يتكون من مندوبى دول ثلاث: هى مصر والفلبين وكولومبيا.

وفي ١٥ صفر ١٣٧٤هـ (١٢ تشرين أول ١٩٥٤م) نفذت الإدارة الإيطالية - بإشراف هيئة الوصاية الدولية أول بند من بنود استقلال الصومال وتهيئة شعبه لتولى زمام أموره، وذلك حين احتفل بإنشاء العلم الصومالى، ثم بدأ مشروع صوملة الوظائف، وكانت كل الوظائف تقريباً حتى ذلك التاريخ: في الجيش والشرطة والإدارة والمصالح والتعليم وشتى المرافق في أيدى الأجانب.

وكانت الحركة الانتقالية الكبرى بعد إنشاء العلم الصومالى وصوملة الوظائف، هي إجراء انتخابات لأول مرة في الصومال لتكوين أول مجلس تشريعي في البلاد. وي شعبان ١٣٧٥هـ (آذار مارس ١٩٥٦م) أجريت الانتخابات العامة، التي أسفرت عن حصول حزب وحدة الشباب الصومالي على غالبية المقاعد، حن ظفر بثلاثة وأربعين مقعدا من مجموع المقاعد البالغ سبعين مقعداً. واقتسمت الأحزاب الاخرى بقية المقاعد. وانتهت الانتخابات لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل تنفيذ اتفاقية الوصاية، وهى تشكيل أول وزارة في تاريخ الصومال الحديث من حزب الأغلبية الذي فاز في الانتخابات. وشكل بالفعل الوزارة من خمسة وزراء إلى جانب رئيسها عبدالله عيسى. وفي جمادى الآخرة ١٣٧٩هـ (كانون أول ١٩٥٩م) أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً بمنح هذا الجزء من الصومال الموضوع تحت الوصاية الدولية الاستقلال في مطلع عام ١٣٨٠هـ (أول تموز ١٩٦٠م).

وبينما كان هذا يحدثِ في الصومال الايطالي السابق، كانت الحركة الوطنية يشتد ساعدها في الصومال البريطاني بزعامة حزبين كبيرين، هما الرابطة الوطنية الصـومالية والحزب الصوماليّ المتحد. وطالب كلا الحزبين بالاستقلال الفورى والـوحـدة مع الصومال الايطالي السابق. وفي ١٠ شوال ١٣٧٩هـ (٦ نيسان ١٩٦٠م) اتخـذ المجلس التشريعي بالصـومـال البريطاني قراراً بوحدة الصومال البريطاني مع الصومال الايطالي بعد حصول الأخير على استقلاله.

وعلى كل حال، ففي ٢٦ ذي الحجة ١٣٧٩هـ (٢٠ حزيران ١٩٦٠م) أعلن استقلال الصومال البريطاني، كما حصل الصومال الايطالي السابق على استقلاله في ٧ محرم ١٣٨٠هـ (أول تموز ١٩٦٠م). وتلا ذلك وحدة كل من الصوماليين البريطاني والإيطالي، وكان من الإقليمين جمهورية واحدة باسم جمهورية الصومال. بينـما رفضت فرنسـا منـح الصومال الفرنسي استقلاله، وظل سكانه يكافحون الاستعمار الفرنسى حتى حصلوا على الاستقلال عام ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) و كانت جمهورية جيبوتى.

obeikandl.com